التربية السياسية عند الإمام علي (ع) ومضات من كلامه وسيرته

حجة الإسلام محمد إحساني*

تَمهيد

لاشك في أن إحدى القضايا المهمة والجديرة بالنظر في أي نظام سياسي، هي طبيعة عمل المسؤولين فيه؛ إذ إن لسلوكهم السليم والمدروس تأثير بالغ في ترسيخ مرتكزات ذلك النظام. وهذا ما لا يتحقق إلا من خلال التربية السياسية للعاملين في إدارة الدولة على مستويين، هما: المعرفة، والعمل. فبوسع المدراء والمسؤولين العمل على طريق تحقيق أهداف الحكومة الإسلامية، وتمهيد الأرضية للتنمية والتطوير الشامل للمجتمع، والعمل على أساس الأفكار والتعاليم الدينية، فضلاً عن توفّر التخصص الكافي. ومن الطبيعي أن إعداد مثل هذه الكوادر يتطلب استثماراً جاداً وبرمجة دقيقة في هذا المجال.

فالإمام علي (ع) كان أثناء سنوات حكمه – وحتى قبل ذلك – يبدي اهتماماً جاداً بهذا الجانب، وأعدَّ على صعيدي المعرفة والعمل، رجالاً ما كانوا يبالون – في سياق إدارتهم لشؤون المجتمع – سوى برضا الله وخدمة الناس. فقد كان أصحابه الخلّص والأوفياء عُبّاداً في غاية الخشوع والخضوع والعبودية لله تعالى، ومجدّين أشدّاء لا يعرفون الكلل والمَلل، ومدراء حازمين ودقيقين، يتعاملون مع بيت المال في غاية الصرامة والتقوى. وسيرة الإمام علي (ع) وأصحابه المخلصين شاهد بيّن على هذا الادعاء.

* ماجستير تاريخ فلسفة التعليم والتربية - من إيران.

فنهج البلاغة الذي يمثل جزءاً من كلام أمير المؤمنين (ع)، عند بيانه للموازين الأخلاقية، عرض أساليب عملية كثيرة في تربية الأفراد وتقوية ركائز الفضائل الأخلاقية فيهم. وكُتُب الإمام علي (ع) وأوامره الحكومية إلى الولاة، تنم عن اهتمامه بتربيتهم سياسياً وأخلاقيا. ونخص بالذكر عهده إلى مالك الأشتر النخعي؛ فهو يمثل منهجاً مدوناً للنظام الإسلامي في جميع الأبعاد، ومن الضروري تطبيقه في مجال التربية السياسية والأخلاقية للمسؤولين الحكوميين؛ وذلك لأنه (عليه السلام) قرن السياسة في عهده هذا، بالدين والأخلاق. ولهذا الأسلوب تأثيره البالغ في تربية وإصلاح المسؤولين، ويعد في الواقع بمثابة دستور للنظام الإسلامي.

وهذه المقالة عبارة عن محاولة لإعطاء صورة واضحة عن التربية السياسية للمسؤولين الحكوميين من وجهة نظر الإمام علي (ع). وقد عرضنا على بساط البحث في هذه المقالة مفهوم، وأهمية، وهدف، ومجال التربية السياسية، والعلاقة بين التربية والسياسة، وتأثير التربية في السياسة، وأنواع، وعوامل، وأساليب التربية السياسية، وكذلك صفات المسؤولين في نهج البلاغة.

- مفهوم التربية السياسية:

لم يُعرض لحد الآن تعريف جامع ومانع لـ «التربية»، و«السياسة»، و«التربية السياسية»؛ إذ يبدو أن هذا الأمر لا يخلو من صعوبة. ولكن رغم ذلك يمكن من خلال الرجوع إلى القواميس وإلى التعريفات التي وضعت لكلمتي التربية، والسياسية، انتزاع مفهوم «التربية السياسية»، وقيل أيضاً بأنَّ التربية هي تنمية قوى الإنسان العقلية والبدنية والروحية، أو هي تحويل الطاقات الموجودة لدى المتربّي إلى حيّز الفعلية. أما اصطلاحاً فهناك تعريفات متعددة للتربية، تؤكد كلّها على أن التربية عبارة عن عملية تصب في سياق تغيير سلوك الفرد وتطبيعه على القواعد المرضيّة في المجتمع.

واستخدمت كلمة السياسة في اللغة بمعنى استصلاح الخَلق. أو هي فن الحكم وإدارة شؤون الناس. وأما اصطلاحاً فهناك تعاريف مختلفة لها، تبعاً لاختلاف آراء ذوي النظر في شؤون السياسة. وعلى كل الأحوال، هناك وجه اشتراك بين كل هذه التعريفات وهو أن المراد من السياسة إدارة وتدبير شؤون المجتمع على سنن الحياة المعقولة، المقرونة بالعزة والرفاه العام.

ويمكن القول في ضوء ما ذكر إن التربية السياسية تعني استصلاح الطاقات الإدارية

والسياسية الكامنة في ذات الفرد، إضافة إلى تنمية القيم الدينية والقواعد العامّة في ذاته، بهدف إعداد مواطنين يستشعرون المسؤولية ويدركون الواجب، وإعداد الكوادر ذات الخبرة والكفاءة في إدارة شؤون المجتمع.

هذا المفهوم للتربية السياسية يُستشف من مجموع التوجيهات والتعليمات السياسية والأخلاقية الواردة في خطب وكتب وحكم نهج البلاغة، لتربية عامة الناس، وبخاصة المسؤولين الحكوميين، ولاسيما عهد الإمام علي (ع) إلى مالك الأشتر؛ فهو يشتمل على مضامين تربوية جمّة، صدرت في سبيل إصلاح شؤون المجتمع، وتوفير المتطلبات العامّة والرفاه الاجتماعي، إضافة إلى تقوية الجوانب الدينية والأخلاقية لدى الناس.

أهمية التربية السياسية:

لعلَّ التربية السياسية هي أهم أنواع التربية، ولها تأثير بالغ في تحقيق الأهداف المادية والمعنوية للمجتمع. ومن الطبيعي أنَّ كل شعب وكل نظام يسعى – على أساس ما يؤمن به من المبادئ والموازين – إلى تحقيق أهداف معيّنة، ويضع – من أجل بلوغها – الخطط والبرامج التي تعتبر معرفة أبناء الشعب بها أمراً مهماً. والتربية السياسية التي تتضمن تنشئة مواطنين ملتزمين ومدركين لما عليهم من واجبات، تهدف إلى إطلاع هؤلاء المواطنين، أيضاً، على موازين وأهداف النظام السياسي. وتحظى التربية السياسية للشباب واليافعين بأهمية خاصّة؛ وذلك لأنهم يشكّلون ساسة وكوادر المستقبل.

إن للتربية السياسية أهمية استثنائية في النظام الإسلامي؛ وذلك لضخامة أعداد شريحة الشباب واليافعين، وتدنّي السن القانونية للناخبين، حيث يكون لآراء جيل الشباب تأثير بارز في اختيار المسؤولين التنفيذيين والتشريعيين في البلاد، وما يتبع ذلك من تأثير في السياسات العامة للنظام، هذا أوّلاً. وأما ثانياً، فإن النظام الإسلامي معرّضاً للهجوم الثقافي أكثر من أي بلد أخر.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، فإن واجب كل أبناء الشعب، وبخاصة جيل الشباب، هو أن يكون على اطلاع تام بالثقافة والقيم الإسلامية، للوقوف بوجه أكاذيب الأجانب، والدفاع عن النظام الإسلامي المقدّس. ويمكن نشر هذه المعلومات والتوعية بين الشباب عن طريق التربية السياسية الشاملة القائمة على المبادئ الدينية والأخلاقية، والتي تتماشى مع متطلبات المجتمع.

ومن المؤسف أن التربية السياسية في بلادنا لا تُطبّق ولا تحظى بما ينبغي أن تحظى به

من الرعاية. وهذا ما يوجب على مسؤولي النظام التعليمي في البلاد الاهتمام بهذا الأمر الحيوي، وتوفير الشروط اللازمة للتربية السياسية للطاقات البشرية المؤهّلة، من أجل إعداد الكوادر المناسبة لإدارة شؤون المجتمع.

إن إهمال التربية السياسية لجيل الشباب تتمخّض عنه نتيجتان سلبيّتان، إحداهما: عدم مبالاة الشباب لمصير البلد، والأخرى تأثّرهم بالهجوم الثقافي ودعايات الغرب. وهذا ربّما يؤدي إلى انطلاء الحيلة عليهم، ما يجعلهم أداة طيّعة بيد الأعداء.

هدف التربية السياسية:

يختلف هدف التربية السياسية تبعاً لاختلاف المدارس والنظريات السياسية. فكل مدرسة سياسية تطمح إلى أهداف خاصّة في ضوء ما تتبنّاه من مبادئ وأسس نظرية. وانطلاقاً من اهتمام الدين الإسلامي بالحكومة باعتبارها أهم مؤسسة اجتماعية، ورعايته لكل أبعاد حياتهم الدنيوية والأخروية، فهو ينظر إلى التربية السياسية من زاوية خاصّة، ويرمي إلى أهداف معيّنة.

وإنّ الغاية من إقامة الحكومة في الإسلام، تطبيق الأحكام الإلهية، وتوفير المتطلبات المادية والمعنوية للمجتمع؛ ولهذا السبب تجري التربية السياسية في هذا السياق تماماً. وأول ما تهتم التربية السياسية من وجهة نظر الإسلام، بتربية المواطنين الواعين والملتزمين، وذوي المسؤوليات؛ بحيث يشعرون بالمسؤولية إزاء القضايا السياسية والاجتماعية ولا يتعاملون معها بروح عدم المبالاة. ومن ثمَّ تهتم بتربية المسؤولين على صعيدي العلم والعمل؛ وذلك لأن المدير والمسؤول الكفء يحتاج إلى العلم والعمل؛ لكي يتمكّن من التعامل السليم مع المواطنين، وإنجاز أعماله بأساليب علمية.

وإن التوفيق بين العلم والعمل، أو بين المعرفة والتقوى، هو من الشروط اللازمة لإدارة وسياسة المجتمع من وجهة نظر الإمام علي (ع)؛ وذلك لأنه يرى أن المدير والحاكم الفاقد لصفتي العلم والتقوى، يسوق المجتمع نحو الفساد والضلال. فقد قال عليه السلام في هذا المجال «لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَ الدِّمَاءِ وَ الْمَغَانِمِ وَ الْأَحْكَامِ وَ إِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ وَ لَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ»[١]. وقال أيضاً في موضع آخر: «لا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ وَ لَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ»[٢] لأن «التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ»[٣] يمنع الإنسان من الإثم والمعصية.

وعلى أساس ما مَرَّ ذكره يمكن القول: إن هدف التربية السياسية في الإسلام ومن

خلال نهج البلاغة، تربية عامّة الناس وبخاصة الشباب منهم، على أساس موازين ومبادئ الأخلاق الإسلامية. ومتى ما كان الحاكم والمسؤول في النظام الإسلامي، وفي أي منصب كان، يتحلى بالخصائص والصفات الدينية المقبولة في الإسلام، فهو يعمل، من غير شك، في سبيل الله والقرآن، ويذود عن القيم الإسلامية. وبعبارة أخرى، إن الغاية هي تربية مواطنين يعرفون واجباتهم السياسية والدينية ويعملون بها.

للتربية السياسية أهداف عديدة، إلا أننا نبحث في هذه المقالة الموضوع الأصلي فقط، وهو تربية المسؤولين، ونتناول أساليب التربية السياسية وصفات الحاكم في كلام الإمام علي (ع) وفي أوامره الحكومية.

مجال التربية السياسية:

من الصعب جدّاً تعيين مجال التربية السياسية وميادينها، ولا يمكن رسم حدودها بشكل دقيق؛ وذلك لأن كل جوانب حياة الإنسان الفردية منها والاجتماعية مرتبطة بالتربية والسياسة. ومع ذلك تتوقّف معرفة حدود التربية السياسية على معرفة ميادين التربية والسياسة، والقاسم المشترك بين هذين الموضوعين هما التربية السياسية.

للتربية ميادين واسعة تشمل كل حياة الإنسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حياة الإنسان مجبولة على السياسة. إذاً، فالتربية والسياسة تشملان كل أفراد المجتمع وفئاته وطبقاته، والناس واقعون تحت تأثير هذين الأمرين، شاءوا ذلك أم أبَوا.

والسياسة بأي مفهوم كانت، لابد أن تكون، من ميادينها المهمة الرئاسة وإدارة شؤون المجتمع، بما فيه خير الناس وصلاحهم. والتربية السياسية بالمعنى الآنف ذكره قابلة للتطبيق في هذا الميدان.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ التربية تقع ضمن دائرة السياسة، ومجالها محدود ضمن إطار السلوك السياسي. ولو اعتبرنا السلوك السياسي يتساوى مع كل عمل سياسي، لاتّسَعَ نطاق التربية السياسية؛ لأنه يغدو شاملاً لكل عمل سياسي موجود في المجتمع. ولكن لو قيّدنا السلوك السياسي ضمن دائرة السلوك السياسي للمسؤولين السياسيين الممسكين بدفّة الحكم، فإنَّ مجال التربية السياسية يتقيد بذلك القدر أيضاً.

إنَّ ما يُفهم من كلام الإمام علي (ع) في نهج البلاغة، يؤيد صحة المعنى الأوّل؛ أي أنه يُطلق على كل نوع من السلوك السياسي؛ والمراد به تربية الناس كافة. فكلام الإمام(ع) أغلب ما يَبدأ بخطاب ذي طابع عام مثل: «أيّها الناس»، أو «عباد الله»، وهو خطاب يشمل كل

الناس. أما أوامره السياسية التي جاءت في نهج البلاغة في صيغة الكتب والرسائل، فأغلبها جاء موجهاً إلى عمّاله وولاته المعينين من قبله. وعلى هذا الأساس، فإن التربية السياسية في كلام وسيرة الإمام علي (ع) تركّز على تربية المسؤولين، وتشمل كل الناس، ويجب تطبيقها بصورة شاملة من أجل الارتقاء بمستواهم على صعيد الفكر والكفاءة. مثلما أمر (عليه السلام) مالك الأشتر – في سياق تطبيق عملية التربية السياسية – بأن: «وَلا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَ الْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ وَ تَدْرِيباً لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ»(٤).

العلاقة بين التربية والسياسة:

لاشك في أن التربية والسياسة قضيّتان منفصلتان عن بعضهما، ولكل واحدة منهما وبادؤها وطرقها. وأحياناً تكون بين هاتين القضيّتين علاقة متبادلة، وينبغي تبيينها؛ أي توضيح طبيعة العلاقة بين التربية والسياسة. ونظراً إلى اختلاف جوانبها، تكون التربية في أحد أوجهها ذات طابع عمومي بالنسبة إلى السياسة؛ لأن التربية تعني إنضاج كل الطاقات السياسية وغير السياسية لدى الفرد، في حين تختص السياسة بالتعامل مع الطاقة السياسية لدى الفرد. وعلى صعيد آخر، فانَّ قضية السياسة أشمل وأوسع من قضية التربية؛ لأنها تغطّي ميادين أشمل من ميدان التربية، مثل الساحة الدولية، والقاسم المشترك بينهما هو التربية السياسية.

وعلى هذا الأساس، فالعلاقة بين التربية والسياسة، علاقة عموم وخصوص من وجه، وهي توجد بينهما، في كثير من الأحيان علاقة متبادلة، وتأثيراً متبادلاً. فعوامل التربية التي تساعد على ازدهار طاقات الفرد، تؤدّي إلى ازدهار وتفتّح طاقته السياسية أيضاً.

ونذكر مثلاً أن البيئة العائلية والاجتماعية هي التي تصوغ السلوك السياسي والرؤية الاجتماعية لدى الفرد، وفي مقابل ذلك يضع النظام الحاكم في المجتمع المناهج والخطط التعليمية والتربوية.

تأثير التربية في السلوك السياسي:

قد يتبادر إلى الأذهان سؤال، وهو: ما التأثير الذي يمكن أن تتركه التربية في السياسة والسلوك السياسي؟ وكما سبق القول، هناك علاقة متبادلة بين التربية والسياسة، وفي الكثير من الحالات تؤثر إحداهما في الأخرى. ولكن بما أن السياسة تتجسد على شكل سلوك سياسي في المجتمع، وغرض التربية هو إصلاح وتغيير السلوك، إذاً، يمكن أن

تضطلع التربية بدور فاعل في تهذيب السلوك السياسي، مثلما هو الحال اليوم بالنسبة إلى القادة السياسيين والمسؤولين في مختلف المجتمعات، فهم يتحلّون بتربية خاصّة – شئنا أم أبينا – ويسيرون وفقاً لأفكار دينية وسياسية معيّنة.(٥)

وتؤكد كل الأديان السماوية، خاصة الدين الإسلامي، على التربية الأخلاقية والسياسية للمسؤولين؛ وذلك لأنهم يسيطرون على أداتين خطيرتين هما السلطة والسياسة. وإن لم تُراع الدقّة في استخدامهما، ولم يكن الساسة يتمتّعون بالصفات الأخلاقية والتربوية السليمة، فستكون لهذا الأمر نتائج لا تُحمد عقباها.

تعتبر السياسة – في الرؤية الإسلامية – متداخلة مع الفضائل الأخلاقية والقيم الدينية، ويجب على الحاكم المسلم أن يراعي حين ممارستها، القيم الدينية. فالنظام الإسلامي يحتاج إلى كوادر ذات إيمان وتقوى، إضافة إلى الكفاءة اللازمة لتطبيق البرامج الدينية والاجتماعية. وتوفير مثل هذا الكادر يتطلب تربية سليمة للأفراد في المجالات الدينية والأخلاقية والسياسية.

يدلّ سلوك الإمام علي (ع) أثناء مدّة حكمه القصيرة، على تربيته لكادر كبير من المسؤولين السياسيين والإسلاميين، ممن كانوا إلى جانبه من ذي قبل، وبعد أن أفضت إليه الخلافة، أخذوا على عاتقهم إدارة شؤون المجتمع. فكان من عمّاله وولاته البارزين: **مالك الأشتر، ومحمد بن أبي بكر، وسلمان الفارسي**، وأمثالهم ممن كانوا يؤدّون مسؤولياتهم في ظل حكمه. فهذه الشخصيات التي تبوّأت مناصب سياسية وتنفيذية عليا، ما كانت تهتم بشيء سوى بالإسلام والقرآن وأداء ما يفرضه عليهم واجبهم الإسلامي. ومع ذلك، كان الإمام علي (ع) يوصيهم دوماً بتطبيق أحكام الإسلام ومراعاة الجوانب التربوية. ومن هنا، فقد جاءت أولى وصاياه إلى **مالك الأشتر**، و**محمد بن أبي بكر**، عندما بعثهما واليين على مصر، رعاية التقوى. فقد أوصى **محمد بن أبي بكر** بتقوى الله في سرائر أمره وخفيات عمله.

وللتربية تأثير بالغ في صياغة السلوك السياسي للمسؤولين الحكوميين؛ ولهذا السبب تظهر في المجتمع توجهات دينية وأخرى مناهضة للدين. والحقيقة أن المذاهب السياسية في العالم جاءت كحصيلة للأفكار التي تكوّنت لدى الأفراد، على أثر اختلاف طرق وأساليب التعليم والتربية. واليوم أيضاً، تجري التربية السياسية بأساليب أكثر تعقيداً مما كانت عليه في الماضي، في مختلف بلدان العالم وخاصة في البلدان الغربية. وقد برزت أهمية هذا الأمر في البلدان الإسلامية أكثر فأكثر، في ضوء الظروف الاستثنائية التي نمر بها.

أنواع التربية السياسية:

التربية عملية تجري لأهداف خاصّة، ويهدف القائم بها إلى تحقيق تطلعات معينة لدى الأفراد الخاضعين لهذه العملية. وتختلف طبيعة التربية السياسية – على أهميّتها – تبعاً لاختلاف النظام الفكري والسياسي للقائمين على تخطيطها وتنفيذها. ولا أدلّ على ذلك من تعدد المذاهب السياسية الموجودة في العالم، والاختلافات العميقة الموجودة بينها في المضامين والأساليب. ومن الطبيعي أن لكل واحد من هذه المذاهب طريقته الخاصة في التربية.

وإن ما يجري في عالم السياسة، وما يُشاهد في أعمال وتصرّفات الساسة، يكشف عن أن السياسة وما يتمخض عنها من تربية سياسية تُقسم إلى نوعين، الأولى: السياسة الشيطانية، وتتمخض عنها تربية شيطانية. والثانية السياسة الإلهية، وتكون التربية فيها إلهية وتوحيدية.

تبيح السياسة الشيطانية الخداع والتحايل، والوصول إلى السلطة بأي طريق ممكن. وقد ابتدع هذه السياسة شخص اسمه مكيافلّلي؛ إذ إنه وضع الأسس الفكرية والنظرية لهذا النوع من السياسة في عصر النهضة، وكان أول شخص في الغرب يبدي رأيه في السياسة بصفتها مسؤولية عامّة. فهو يعتقد أن السياسة لا يمكن أن تقترن بالمعايير الدينية والأخلاقية. وهذه النظرة تمثل المبدأ الذي تقوم عليه سياسة العالم الغربي المعاصر، وقد أفضى هذا النوع من التفكير إلى فصل الدين عن السياسة تدريجياً. وفي هذا النوع من السياسة يَنصَبُّ اهتمام المسؤولين السياسيين على توفير المتطلبات المادية فحسب، ويتجاهلون القيم الدينية.

أما السياسة الإلهية فغايتها تطبيق أحكام الله، والعدالة الاجتماعية، وتوفير متطلبات المجتمع، باستلهام الوحي وكلام رسول الله (ص)، وتربّي من أجل هذه الغاية، مسؤولين يتحلّون بالصفات الدينية والأخلاقية. أما الساسة التوحيديون فيأتي على رأسهم أولياء الله والقادة والربّانيّون؛ أي الأنبياء والأئمة المعصومون عليهم السلام. ويُعتبر أسلوب المسايسة ومعالجة الأمور بالكياسة، من أبرز مزاياهم، كما جاء في بعض الأحاديث والأدعية في وصف المعصومين(عليهم السلام) بـ «ساسة العباد». إذاً، فمن يتربّون في مدرسة الأنبياء والأئمة الأطهار (عليهم السلام)، يضطلعون بمهمة التخطيط للسياسة التوحيدية، وتنفيذها.

العوامل المؤثرة في التربية السياسية:

بما أن التربية السياسية فرع من التربية بمعناها العام، فهي تتأثر بالعوامل المؤثّرة في التربية. والمراد من عوامل التربية السياسية، العناصر ذات التأثير في الرؤية، والتفكير، والسلوك السياسي للفرد، والتي تُعيّن بالنتيجة نهجه السياسي. ويمكن – من خلال النظر في سيرة وكلام الإمام علي (ع) – العثور على عوامل عديدة ذات تأثير في التربية السياسية. وما جاء من كلامه في خطب وكتب وحكم نهج البلاغة، يعكس هذا المعنى بكل جلاء. وبما أن مقالة واحدة لا تستوعب بحث جميع عوامل التربية السياسية التي يضمها نهج البلاغة، نكتفي في ما يلي، بالإشارة إلى أهمها:

١- الدين والإيمان بالله:

يُستَشفُّ من سيرة وكلام الإمام علي (ع) مع أصحابه، أن الدين والإيمان أهم عوامل تربية الإنسان. فالدين وما فيه من منهج عملي، يؤثر من جوانب عديدة في بلورة شخصية وأفكار وسلوك الفرد، حتى أن منهج حياة الإنسان مستقىً من الدين ومن القادة الدينيّين. فالأفكار الدينية – إلى جانب ما لها من تأثير على السلوك الفردي والعائلي – هي التي تعين الاتجاهات السياسية والاجتماعية للفرد. وفي عالم اليوم، هناك الكثير من البلدان في شرق العالم وغربه، ترسم سياساتها العامّة على أساس ما لديها من تراث ديني.

وللدين تأثير لا يُستهان به في كبح جماح السلطة، والحيلولة دون وقوع الفساد السياسي والإداري. فقد دعا الإمام علي (ع) الولاة والعمال مرّات عديدة إلى اتّباع الدين وتطبيق أحكام الله: «**فَشَرِّفُوهُ (الدين) وَ اتَّبِعُوهُ وَ أَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ وَ ضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ**»[٨].

وفي موضع آخر، حذَّر من استغلال الدين لأغراض أخرى، وما ينجم عن ذلك من أضرار فادحة، قائلاً: «**فإنّك (عمرو بن العاص) قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَ يُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَ يَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَ آخِرَتَكَ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ**»[٩].

بيّن الإمام علي (ع) في ما بعث من الكتب السياسية إلى الولاة التابعين والمعارضين له، أن اتّباع الدين عامل مؤثر في سعادة الإنسان، منبّهاً في الوقت ذاته إلى الأضرار الناجمة عن الابتعاد عن الدين.

للدين تأثير فاعل في الحياة الفردية، والعائلية والاجتماعية للمرء. والامتثال لأحكام وتعاليم الدين، يُصلح أخلاقه وسلوكه. والإيمان بالله وذكره يبعث السكينة والاستقرار في قلب الإنسان، ويدفع عنه قلق واضطرابات الماضي والمستقبل. ويبيّن الباري-تعالى- أن الاطمئنان لا يتحقق إلا بذكره هو: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١٠]. وقال علي (ع) في وصفه لتأثير الإيمان بالله وبأصول المعتقدات: «**الإيمان مُشْرِقُ الجَوَادِّ مُضِيءُ المَصَابِيحِ**»[١١]. فالله تعالى قد وصف الدين بأنّه طريقه المستقيم، فقال: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[١٢].

أهم تأثير تربوي للدين والإيمان هو إصلاح السلوك والخُلُق الفردي والاجتماعي، وهو ما يؤثر في السلوك السياسي أيضاً. والمسؤولون المتديّنون الذين يتحلّون بخلق إسلامي، أكثر فاعلية من المصلحين الاجتماعيين الآخرين، في تطبيق الحق والعدالة في المجتمع. ومن خصائص الرسول (ص) التي كان لها دور في نشر الإسلام، سمو أخلاقه وحسن سيرته، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بـ «الخلق العظيم»[١٣]. وقال النبي «**إنما بُعثت لأتَمِمَّ مكارم الأخلاق**»[١٤].

وعلى هذا الأساس يتضح أن من التأثيرات المهمة للتربية الدينية، إصلاح سلوك الناس، بخاصة السلوك السياسي للمسؤولين الحكوميين. ولو كان الساسة متخلّقين بخلق الإسلام، لما ظهرت مشاكل اجتماعية. فالكثير من الأزمات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية ناجمة عن عدم التديّن أو عدم المبالاة بالقيم الدينية. والتعاليم التي كان يصدرها الإمام علي (ع) إلى عمّاله وولاته، تؤكّد كثيراً على رعاية التقوى والتديّن والعمل بأحكام الله؛ بحيث لو عمل بها المسؤولون السياسيّون اليوم، لحققوا ما يصبون إليه من أهداف دينية وإسلامية. فما زالت تعاليم الإمام علي (ع) - بعد مضي قرون عليها - تحمل مضامين جديدة بالنسبة إلى المدراء والمسؤولين الحكوميين في الوقت الحاضر، ويجب أن ينتفعوا منها.

٢- الأسرة:

العامل الآخر الذي له أهمية قصوى في التربية السياسية هو الأسرة. فالأُسرة هي الموضع الأول الذي يضع فيه الطفل قدمه على الأرض ويتعرّف على البيئة المحيطة به. والحقيقة هي أن شخصية الإنسان تتبلور في جو الأُسرة، وتتأثر بأفكار وآراء الأشخاص الذين ينشأ بينهم. والأفكار السياسية التي يحملها كل شخص، تأتي من التفكير السائد في

جو الأسرة قبل أي شيء آخر؛ إذ إنَّ التوجّهات وعناصر الحب والبغض التي يحملها أفراد الأسرة، وبخاصّة الأب والأم، تؤثّر تلقائياً في تكوين النظام الفكري للأبناء.

جاءت في نهج البلاغة أمثلة كثيرة يشير فيها الإمام علي (ع) إلى تأثير الأسرة في التربية السياسية للفرد. فقد أشار في كتاب بعثه إلى معاوية، إلى ماضي أسرته، وعدم أهليّتهم للتصدي لزمام الأمور: «**وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ وَ وُلاَةَ أَمْرِ الأُمَّةِ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ وَ لاَ شَرَفٍ بَاسِقٍ**»(١٥). أي أن بني أميّة يزعمون لأنفسهم الخلافة من غير أن يكون لهم شرف محتد ولا تليد مجدٍ. وأشار في كتاب له إلى أحد وُلاته – وكان قد ارتكب خطأً – إلى سابق شرف أسرته الذي دعاه إلى استعماله، قال فيه: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ وَ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ وَ تَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً**»(١٦).

وبيّن عليه السلام انتسابه إلى رسول الله (ص) وأنه كان ملازماً له في طفولته، وتأثّره بأخلاقه ووصاياه التربوية، وشرح في «الخطبة القاصعة» موضعه من رسول الله والخصائص التربوية التي أخذها عنه. ووصف في هذه المقاطع طبيعة حياته مع رسول الله(ص) وكيف انه كان يسلك به طريق المكارم ويسمو به إلى محاسن الأخلاق، معتبراً ذلك منقبة له. وهذا يعني أن شخصية الإمام علي (ع) عبارة عن حصيلة لتربية الرسول (ص) وألطافه الكريمة التي أخذها عنه.

٣- القيم المقبولة اجتماعياً

من العوامل الأخرى التي تؤثر في تكوين التوجّهات السياسية للفرد – شئنا ذلك أم أبينا – التقاليد والقيم التي يرتضيها المجتمع. فقد أثبتت التجربة أن الساسة يتأثّرون بالأجواء السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع. وحتى لو أُريد إخضاع الشخصية العلمية والسياسية لفرد معين، للدراسة والتحليل، فلا مناص من دراسة ظروفه البيئية، وإلا فلن تكون النتيجة كاملة. فالقيم المرضيّة اجتماعياً لها تأثيرها في رسم سياسة المسؤولين وما يتّخذونه من قرارات، بل أن من يخططون للشؤون السياسية والاجتماعية لا يمكنهم وضع خططهم ما لم يضعوا تلك الأمور نصب أعينهم. إضافة إلى ذلك، فانَّ الالتزام بالقيم والتقاليد يعتبر عامل توحيد للامّة، وكثيراً ما يؤدّي تجاهلها إلى حدوث اضطرابات اجتماعية.

وقد أشار الإمام علي (ع) في عهده إلى مالك الأشتر، إلى أهمية التقاليد الاجتماعية محذراً إياه من تجاهلها، قائلاً: «وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ وَ اجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ وَ صَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ»(١٧).

يفهم من هذا أن التقاليد والقيم التي يرتضيها الناس ويعملون بها، ينبغي أن تُحفظ فيما إذا لم تتعارض مع أحكام الدين؛ لأن وجودها يمثّل محوراً تلتف عليه الأُمّة. والعمل بالقيم والأعراف الدينية يحظى اليوم بمثل هذه الأهمية، والحفاظ عليها يعني الحفاظ على الوحدة والاستقلال والحريّة. والمجتمعات التي لا تعير أهمية للقيم الدينية، تعاني من مشاكل اجتماعية كثيرة، وتعيش حالة من التشتت والفرقة، وتهيمن عليها القوى الأجنبية. إذا، فالتقاليد والقيم الاجتماعية لها تأثيرها في تكوين الرؤية السياسية للفرد.

طرق التربية السياسية:

من الأبحاث التربوية المهمّة التي يجب أن تخضع للدراسة، طُرُق وكيفية التربية. فالتربية لها طرقها التي يجب معرفتها وتطبيقها. ومع إن التعليم والتربية في زمن أمير المؤمنين(ع)، لم يكن – كما هو عليه اليوم – اختصاصاً علمياً؛ بحيث يمكن التحدث عن طرقه وأساليبه، إلا أن الإمام علي(ع) باعتباره معلّماً وسياسياً مثالياً، استخدم أساليب شتى في التربية. والكثير من الطرق المطروحة في مجال التعليم والتربية اليوم، موجودة في سيرة وكلام الإمام علي (ع). وسنأتي فيما يلي على ذكر أهم ما نستخرجه منها، من كلامه في نهج البلاغة:

١-أسلوب التأسي (الاقتداء):

تقديم الأُسوة العملية، يؤثر في تربية الأفراد. فالأفراد يلاحظون سلوك الأُسوة عملياً على صعيد الحياة الواقعية، ويحذون حذوه. والحقيقة هي أن الله–تعالى– بعث الأنبياء في عهود مختلفة، من أجل أن يقتدي الناس بسلوكهم، ويتخذون منهم أُسوة لهم في الحياة. ولهذا السبب وصف الباري تعالى رسوله للناس، بالأُسوة الحسنة، وقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾(١٨). فقد كان رسول الله (ص) أُسوة في كل حياته وصفاته، وكونه أُسوة لا يختص بزمان فلا مكان معيّن، وإنما هو أُسوة لكل الناس إلى يوم القيامة.

وفي سياق تأسّي الإمام علي (ع) برسول الله (ص)، وصفه للآخرين بأنه أفضل قدوة

وأُسوة ومثال في الحياة، وقال: «وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ وَ اسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ»(١٩). وقال أيضاً في الامتثال لأمر رسول الله (ص): «فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَ مَا وَضَعَ لَنَا وَ أَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ وَ مَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ ص فَاقْتَدَيْتُهُ فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا [طلحة والزبير]»(٢٠).

وأشار الإمام علي (ع) إلى انه أُسوة للولاة والعُمّال أيضاً، ووصف نفسه بالإمام الذي يجب أن يُؤتم به، ويُتّبع منهجه في الحكم، وقال في هذا المجال لعثمان بن حنيف، واليه على البصرة، ما يلي: «وَ إِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَ يَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلا وَ إِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَ مِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلا وَ إِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَ لَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَ اجْتِهَادٍ وَ عِفَّةٍ وَ سَدَادٍ»(٢١).

هذه الأمثلة كثيرة في كلام الإمام (ع)، وتدل على استخدامه لأسلوب التأسّي في تربيته للناس، وخاصة المسؤولين، ووصف الرسول (ص)، ونفسه بالقدوة الحسنة. وقد سار أصحابه وعمّاله على هذا النهج المبارك أيضاً، وحذوا فيه حذوه؛ فكان ذلك سبباً إلى أن يبلغ أصحابه مراتب سابقة في الأخلاق والتربية، من خلال اتباعهم لمناهجه السلوكية.

٢- أسلوب الموعظة والنصيحة:

الموعظة والنصيحة من الأساليب العامّة في التعليم والتربية، ووردت بكثرة في كلام الإمام علي (ع)، واستخدمت في التربية السياسية للولاة والعُمّال. ويعتبر الإمام علي الموعظة الحسنة والنصيحة من حقوق الرعية على الوالي. فقد جاء في نهج البلاغة «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً وَ لَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ»(٢٢).

وقال في موضع آخر: «إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ الْإِبْلاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَالِاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ»(٢٣).

وعلى الصعيد العملي، استعان أمير المؤمنين بأسلوب الوعظ والنصيحة، أيضاً، في تربية عامة الناس وخاصة الولاة والعمّال. وما جاء في كلامه في شتّى المجالات مثل التزام التقوى، والإعراض عن الدنيا، والنظر إلى نتائج الأعمال، وذكر الموت، وما شابه ذلك، يُمثل دلالة جليّة على استخدامه لأسلوب الوعظ والنصيحة لهداية الناس. وكان له تأثير في أصحابه بحيث أنتجت مسؤولين مثل: **سلمان الفارسي ومالك الأشتر**. لقد استقى ولاة وعمّال الإمام علي(ع) المخلصين كل أفكارهم الدينية والسياسية – الاجتماعية، مما كان يلقيه إليهم من تعاليم وتوجيهات إلهية. وكانوا هم بدورهم يطبقون تلك المبادئ من غير

مواربة، وما كانوا يبالون لشيء إلا تطبيق العدالة. وهذا ما حدا بالإمام إلى دعوة أهل مصر – في كتاب بعثه إليهم – إلى طاعة مالك الأشتر إطاعة مطلقة. وقال في وصفه لهذا الشخص: «فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ لا كَلِيلُ الظُّبَةِ وَ لا نَابِي الضَّرِيبَةِ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا وَ إِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا فَإِنَّهُ لا يُقْدِمُ وَ لا يُحْجِمُ وَ لا يُؤَخِّرُ وَ لا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي»(٢٤).

واليوم أيضاً، يمكن استخدام أسلوب الوعظ والنصيحة في التربية السياسية للمسؤولين، والحصول على أفضل النتائج. إنَّ الإنسان بذاته يحتاج إلى الموعظة. وميوله الفطرية تزدهر بالوعظ والنصيحة؛ والنصيحة التي تنطلق من القلب السليم تدخل إلى القلب. ومن حكم الإمام علي (ع)، قوله: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ»(٢٥)؛ لأن الموعظة تنبّه القلب الغافل وتذكّره بالله.

٣- أسلوب الإشراف والرقابة:

للإشراف والرقابة تأثير لا يستهان به في التربية والتحكم بالسلوك. والإشراف من الأساليب المؤثّرة في التعليم والتربية، خاصّة التربية السياسية وإدارة الشؤون الاجتماعية، وله تأثير فاعل في تهذيب سلوك الفرد. ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يشعر بأنه عمله خاضع للتدقيق، يبذل مزيداً من الدقّة في إنجازه. وكما أثبتت التجربة أن المسؤولين الحكوميين إذا شعروا برقابة صارمة من قبل الأجهزة الأمنية والقضائية، وعلموا أن أعمالهم ستتعرض للتفتيش والمساءلة، فإنهم نادراً ما يقعون في خطأ أو مخالفة.

وقد استخدم الإمام علي (ع) في عهد خلافته أسلوب الرقابة والإشراف، واستعان به لإصلاح وتحسين الأمور الاجتماعية. والذي يُفهم من سيرته، أنه كان يراقب مراقبة تامّة أعمال وُلاته، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وكان يسارع عند مشاهدة أية مخالفة من أحدهم، إلى توجيه اللوم والتقريع له، أو عزله. وأبرز شاهد على ذلك، كتاب التقريع الذي بعثه إلى عثمان بن حُنيف والي البصرة. وقال في ذلك الكتاب بعد حمد الله والثناء عليه: «فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَ تُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ وَ مَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَ غَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ».(٢٦)

يُستدل من هذا الكتاب أن الإمام علياً (ع) كان يراقب سلوك وتصرّفات عمّاله بدقّة،

وكان مطّلعاً على صغائر أعمالهم وكبائرها. ومن الواضح أنه كان يوظّف أفرادا لمراقبة أعمال وُلاته خفية، وموافاته بتقارير عن أوضاعهم، وكان يتّخذ مواقفه على أساس تلك التقارير؛ لأنه استخدم في هذا الكتاب كلمة «بلغني». وفضلاً عن استخدامه لهذا الأسلوب، كان يوصي كبار وُلاته وعمّاله باستخدامه أيضاً.

أمر أمير المؤمنين (ع) مالك الأشتر بما يلي: «ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ وَ ابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَ الْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَ الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ».(٢٧)

وقد كانت معظم القرارات التي يتخذها أمير المؤمنين (ع) في نصب وعزل الولاة، تأتي على أساس التقارير الدقيقة والموثّقة التي كانت توافيه. وتجدر الإشارة إلى أنه (ع) كان يستخدم هذا الأسلوب بلا مواربة، وبلا مراعاة للاعتبارات السياسية أو اعتبارات القرابة. فعندما بلغه خيانة أحد أبناء عمّه في أموال الناس، هدده بالقول: «فَاتَّقِ اللَّهَ وَ ارْدُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللَّهِ فِيكَ وَ لَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»(٢٨).

٤- أسلوب التشجيع والتكريم:

أحد الأساليب الفاعلة في التعليم والتربية في عالم اليوم، هو أسلوب التشجيع والتكريم؛ إذ إنه يجعل المرء أكثر اندفاعاً وحبّاً لمواصلة العمل. فالتكوين النفسي والعاطفي يجعله يندفع إلى العمل أكثر حين يَلقى التشجيع والتكريم. ولهذا السبب فإن التشجيع والإثابة لهما بالغ التأثير في إصلاح أو تحسين السلوك. ويؤكّد خبراء التربية كثيراً على الاستعانة بهذا الأسلوب لتربية الأفراد.

وتدل سيرة الإمام علي (ع) على ممارسته لأسلوب التشجيع والتكريم في تربية وهداية الناس؛ وكلامه في نهج البلاغة في مختلف الميادين، يشير إلى هذا المعنى. فهو عليه السلام يدعو مالك الأشتر إلى أن «...وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَ الْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَ تَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ»(٢٩). وجاء في موضع آخر من عهده إليه ما يلي: «وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَ تَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وَ تُحَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»(٣٠).

وكان علي (ع) نفسه يشجّع أصحابه بالثناء وعبارات تثير فيهم الحميّة والحماس مما

يخلق لديهم الاندافع. كما قال مخاطباً مالك الأشتر: «أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَ الْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ وَ الْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ وَ أَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ، فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ»(٣١).

وفي نهج البلاغة أمثلة كثيرة من هذا النوع من التشجيع والترغيب لأصحابه وولاته، ويُستشف من مجموعها أن أسلوب التشجيع والتكريم كان موضع اهتمام لديه وأنه كان يستعين به في تربية الأفراد. ولو استخدم التشجيع بالشكل الصحيح لكان له تأثير مهم في التربية وإصلاح السلوك، وبخاصّة في مجال التربية السياسية، وتكريم العاملين المجدّين والمخلصين.

صفات المسؤولين في كلام الإمام علي(ع):

كلام الإمام علي (ع) حول المسؤولين، ينطوي على بيان لما ينبغي أن يتوفّر فيهم من الصفات، التي تعكس كل واحدة منها مفهوماً خاصاً من القيم الإسلامية. ولو كانت تتوفر في المسؤولين مثل هذه الصفات فمن المؤكد أنهم سيعملون في سبيل الله ومن أجل رفعة الإسلام. وقد ورد في كلام الإمام علي (ع) الكثير من الوصف للمسؤولين الصالحين. ونشير في ما يلي إلى قسم من تلك الصفات:

١- التقوى:

استناداً إلى الأفكار السياسية والتربوية للإمام علي (ع) يجب أن يتصف المسؤولون في النظام الإسلامي بتقوى الله قبل أي شيء آخر؛ أي أن يضعوا الله نصب أعينهم في الشؤون الاجتماعية وفي إدارة شؤون المجتمع. فالسياسة والسلطة غرارة أكثر من أي شيء آخر، والسياسي معرّض للخطأ والخيانة أكثر من أي شخص آخر. وذكر الله والتوجّه إليه يحول دون السقوط في مهاوي المعصية. وانطلاقاً من هذه الرؤية أوصى الإمام علي (ع) مالك الأشتر في عهده إليه، بما يلي: «يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَ يَدِهِ وَ لِسَانِهِ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَ إِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».(٣٢)

إن وضع الله نصب العين في كل الأمور، له تأثيرات تربوية جمّة في الحياة الفردية والاجتماعية. ولو تصوّر الإنسان أن الله موجود في كل الظروف والأحوال، ويشهد كل الأمور، وخاصّة السياسية والاجتماعية، لكان ذلك رادعاً له عن اقتراف أي خطأ أو زلل. فالإخلاص في العمل واجتناب المعاصي، والتقرّب إلى الله، ينتج من التوجّه إلى الله،

والاعتقاد بحضوره واطلاعه على السر والعلن. وبالإضافة إلى الآثار التربوية التي تحصل للشخص نفسه من تقوى الله، فان ذلك يؤدّي، أيضاً، إلى إلقاء محبّته في قلوب الآخرين، ويصلح بينه وبين الناس. فقد قال أمير المؤمنين (ع) في هذا المعنى ما يلي: «مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ النَّاسِ».(٣٣)

٢- اتباع الحق:

من الصفات الأخرى للمسؤولين الحكوميين في كلام الإمام علي (ع)، اتّباع الحق. فالمسؤولون يجب أن يعملوا لتطبيق الحق والعدالة في المجتمع في كل الظروف، ولا يتغاضوا عن الحق إطلاقا. وتفيد سيرة الإمام علي (ع) أنه كان يطبق الحق بشكل كامل ودقيق، ويراعي الحقوق. وفضلاً عن ذلك كان يأمر وُلاته وعمّاله برعايته أيضاً، وأن لا يتغاضوا عن الحق أبداً؛ حيث أمَرَ مالك الأشتر بما يلي: «ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ».(٣٤)

وقال أيضاً في أهمية رعاية الحق من قبل الوالي والرعية: «فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ وَ أَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَ قَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَ اعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ وَ جَرَتْ عَلَى أَذْلالِهَا السُّنَنُ فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ»(٣٥). وقال في مجال العمل بالحق: « وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَ الْبَعِيدِ وَ كُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ».(٣٦)

هناك أمثلة كثيرة في سيرة وكلام أمير المؤمنين (ع) يوصي فيها بالعمل بالحق؛ بل إن التزام الحق من خَصائص الحاكم المسلم. والمسؤولون في النظام الإسلامي يجب أن يعملوا بالحق ويطبّقوه في المجتمع. وينبغي انتهاج الحزم في العمل بالحق، بحيث يجب أن يطبّقه المسؤول حتى على أحب الناس إليه. وقد كان المخلصون من ولاة وعمّال الإمام علي (ع) يتحلّون بهذه الصفة، وثبتوا عليها إلى آخر أيام حكمهم، وذادوا عن الحق في كل الظروف.

٣- العدالة:

إحدى الصفات البارزة للمسؤولين في سيرة وكلام الإمام علي (ع)، هي العدالة والعمل بها. ومثلما كانت حياة الإمام علي (ع) كلها عدالة وعملاً بها في الحياة الاجتماعية، كان كلامه، أيضاً، كله دعوة إلى الحق وتحقيق العدالة. وقد أوصى عليه السلام أحد وُلاته بما يلي: «أَنْصِفِ اللَّهَ وَ أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَ مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَ مَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ»(٣٧). واستناداً إلى هذا الأمر، يتبيّن أن من واجب الولاة محاربة الجور والتمييز.

وقال الإمام في وصية أخرى له إلى مالك: «وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ»(٣٨). فتطبيق العدالة بين الناس ورعاية حقوقهم يخلق لديهم الحوافز، ويدفعهم إلى تأييد الحكومة. وفي مثل هذه الحالة يتمكن الحكام من إدارة شؤون المجتمع على نحو أفضل. وجاء أيضاً في موضع آخر من كلامه: «وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ».(٣٩)

يفهم من أمثال هذه التعليمات الحكومية التي كان يصدرها الإمام إلى وُلاته، أن المسؤول في النظام الإسلامي يجب أن يكون محارباً للظلم، وداعياً إلى العدالة ومطبّقاً لها. ولو كان المسؤولون في النظام يتّصفون بمثل هذه الصفة حقّاً، لاقتربنا من تحقيق الدولة الكريمة التي وُعدنا بها. وتبرز اليوم – أكثر من أي وقت آخر – ضرورة إعداد كوادر من المسؤولين الإسلاميين ممن تتوفر فيهم هذه الصفات. ووجود مثل هذه الطاقات البشرية، يؤدي إلى تقدّم وازدهار البلد والشعب؛ إذ يتسنّى حينها للمسؤولين المؤمنين من ذوي الكفاءات، حل مشاكل المجتمع في جميع الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٤- إعانة ومواساة الفقراء والمحتاجين:

إن الفقر وفقدان متطلبات الحياة، حالة يعاني منها الكثير من الناس، وخصوصاً الطبقة المحرومة من أبناء المجتمع. ومن واجب الدولة توفير متطلبات هذه الشريحة المحرومة. ولو كان المسؤولون والمدراء يحملون هموم هذه الشريحة، لانحلّت مشاكلها على نحو أسرع. فمساعدة الفقراء والمحتاجين والعمل من أجل القضاء على الفقر، من الصفات البارزة للقادة السياسيين والدينيين.

كان الإمام علي (ع) يدافع عن المحتاجين ويقدّم لهم العون. وسيرته في هذا المجال سواء في أيام خلافته أو قبلها، أفضل مثال لإعانة الفقراء والمحتاجين.

كان علي (ع) نفسه معيناً للفقراء، وكان يأمر وُلاته بهذه الخصلة أيضاً. فقد جاء ضمن عهده إلى مالك الأشتر: «اللَّهَ اللَّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَ الْمُحْتَاجِينَ وَ أَهْلِ الْبُؤْسَى وَ الزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَ مُعْتَرّاً، وَ احْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَ اجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَ قِسْماً مِنْ غَلَاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ».(٤٠)

يدل هذا الأمر الصادر من الإمام إلى مالك الأشتر، على أهمية وضرورة اهتمام

الحكومة بالطبقة المحرومة من المجتمع. ولو كان المسؤولون يشعرون بالمسؤولية في هذا المجال، وكانوا مُطّلعين على معاناة المحتاجين لسارعوا فوراً إلى حل مشاكلهم. ولكن إذا كان المسؤولون الحكوميون لا يبالون لآهات ذوي البؤس، ولا يعملون بما عليهم من الواجبات، فستزداد الشريحة المحتاجة حاجة.

الفقر الاقتصادي يؤدّي إلى ظهور كثير من المشاكل الاجتماعية، والفساد الأخلاقي، وانعدام الأمن الاجتماعي. وما أكثر المحتاجين الذين لا يجدون أمامهم سبيلاً – بسبب الفاقة – سوى ارتكاب الجرائم من أجل سد الضروري من حاجاتهم وحاجات عوائلهم. ولو تم القضاء على مشكلة الفقر في المجتمع أو تقليصها، لسادَ الأمن في المجتمع ولتلاشى الكثير من الفساد الأخلاقي والسلوكي. إذاً، فمكافحة الفقر ورعاية الطبقة المحرومة، من الصفات البارزة للمسؤولين، وهو مما أكد عليه الإمام علي (ع) كثيراً. وحريٌّ بالمسؤولين في الحكومة الإسلامية أن يحتذوا بسيرته وكلامه في هذا المجال.

٥- الأمانة:

الأمانة في ضوء الفكر السياسي عند الإمام علي (ع) من الخصائص البارزة للمسؤولين الحكوميين. فكل ما يوضع تحت تصرفهم من مناصب وأموال، إنّما هي لعامّة أبناء الشعب، وتبقى أمانة عندهم إلى حين. وهذا يعني أن كل مسؤول حكومي ملزم بحفظ ما في يده من أمانة أبناء الشعب، وتوظيفها بما يعود عليهم من نفع مادي ومعنوي. فقد توجّه الإمام علي (ع) باللوم إلى أحد وُلاته، في ما يتعلّق بهذا المعنى: «**(يا أشعث) إِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَ لَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ وَ أَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ وَ لا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ**».(٤١)

صفة الأمانة صفة في غاية الحساسية بالنسبة إلى المسؤول الحكومي، وينبغي أن تُراعى بدقّة عند اختيار الأشخاص وأن تكون واحدة من شروط استخدام الموظّفين. فقد أمر علي (ع) مالك الأشتر في هذا المجال بما يلي: «**(يا مالك) فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً وَ أَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً**»(٤٢). والكتاب الذي بعثه أمير المؤمنين إلى أحد وُلاته ويلومه فيه على ما ارتكبه من خيانة، يدل على أهمية هذا الموضوع عنده، وما يبديه من حساسية فائقة إزاء قضية الحفاظ على بيت المال، حيث كتب إلى زياد بن أبيه، ما يلي: «**أُقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَماً صَادِقاً لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَو كَبِيراً لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ثَقِيلَ الظَّهْرِ ضَئِيلَ الْأَمْرِ**»(٤٣). فهو عليه السلام يعتبر خيانة بيت المال أعظم خيانة: «**وَ إِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ**».(٤٤)

يرى الإمام علي (ع) أن الأمانة ميزة بارزة في المسؤولين الحكوميين ويجب أن تحظى باهتمامهم. وسيرته وكلامه يدللان على مدى أهميتها عنده.

وهناك في كلامه (ع) صفات أخرى يجب أن تتوفر في المسؤولين وولاة الأمور، ولا يمكن التطرّق إليها كلّها، وإنما نكتفي بما عرضناه منها. فكل واحدة من الصفات التي سبق ذكرها، كانت موضع اهتمام أمير المؤمنين (ع)، وكان يعاقب من غير مواربة، كل من لا يلتزم بها، بل حتى أنه كان يلجأ إلى عزله من عمله. إن التربية السياسية للمسؤولين ينبغي أن يتم التخطيط لها وتنفيذها بشكل يؤدي إلى غرس صفات حميدة فيهم كالإيمان بالله، واتباع الحق، والأمانة. ولو وُجِدت مثل هذه الصفات فيهم لنتجت عنها معطيات هائلة لصالح المجتمع في الجوانب التربوية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية.

الخلاصة

بحثنا في هذه المقالة موضوع التربية السياسية – التي تؤلف قسماً مهماً من التربية بمعناها العام – انطلاقاً من سيرة وكلام الإمام علي (ع). واتضح أن الضرورة تستدعي في الظروف الحالية، تطبيق عملية التربية السياسية في سياق برمجة توضع بمنتهى الدقّة، من أجل إعداد الكوادر الإدارية ذات الكفاءة؛ إذ يمكن من خلال تطبيق عملية التربية السياسية بشكل شامل، تربية مواطنين يدركون واجبهم ويشعرون بالمسؤولية إزاء الشؤون الدينية والأوضاع الاجتماعية، بحيث يهبّون في الظروف الحساسة، من قبيل حصول عدوان خارجي، أو مؤامرة داخلية؛ إلى مناصرة النظام والدفاع عنه. وأهم عامل يخلق مثل هذا الحافز القوي، هو الدين والقيم الدينية.

الغاية من التربية السياسية – في ضوء سيرة الإمام علي (ع) – هي إعداد مسؤولين مُسلّحين بالثقافة الإسلامية؛ بحيث يضعون الله نصب أعينهم على الدوام عند تطبيق القانون وإدارة شؤون المجتمع، ويعملون على أساس الحق.

في النظام الإسلامي يجب أن يوضع في المناصب التنفيذية، من يتحلّى بدرجة عالية من حب العدالة، والأمانة، ومكافحة الفقر. ولعله يتسنى لأمثال هؤلاء المسؤولين تحقيق الأهداف الإسلامية في ظل الحكومة والتصدّي لزمام الأمور. وقد استخدم الإمام علي (ع) أساليب شتّى في تربية مثل هؤلاء الحكام. وكانت تعليماته وأوامره إلى كبار مسؤولي الحكومة التي كان هو على رأسها، تتضمن أساليب مختلفة في تربية الأفراد، وقد أشرنا في هذه المقالة إلى قسم منها.

الهوامش

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٣١.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.
(٤) نهج البلاغة، الكتاب٥٣.
(٥) عميد زنجاني، الفقه السياسي، ص٥٦.
(٦) نهج البلاغة، الكتاب ٣٣.
(٧) الإمام الخميني، صحيفة النور، ج ١٣، ص ٣٩٨.
(٨) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.
(٩) نهج البلاغة، الكتاب ٣٩.
(١٠) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(١١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.
(١٢) الأنعام: الآية ١٥٣.
(١٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(١٤) تفسير الميزان، ج١٩، ص ٣٧٧.
(١٥) نهج البلاغة، الكتاب ١٠.
(١٦) نهج البلاغة، الكتاب ٧١.
(١٧) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
(١٨) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(١٩) نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.
(٢٠) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٥.
(٢١) نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.
(٢٢) نهج البلاغة، الخطبة ٣٤.
(٢٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٥.
(٢٤) نهج البلاغة، الكتاب ٣٨.
(٢٥) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.
(٢٦) نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.
(٢٧) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
(٢٨) نهج البلاغة، الكتاب ٤١.
(٢٩) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
(٣٠) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
(٣١) نهج البلاغة، الخطبة ١١٨.
(٣٢) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
(٣٣) المصدر السابق، الحكمة ٨٩.
(٣٤) المصدر نفسه، الكتاب ٥٣.
(٣٥) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

(٣٦) (م.ن.)، الكتاب ٥٣.
(٣٧) (م.ن.)، الكتاب ٥٣.
(٣٨) (م.ن.)، الكتاب ٥٣.
(٣٩) (م.ن.)، الكتاب ٥٣.
(٤٠) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
(٤١) نهج البلاغة، الكتاب٥.
(٤٢) (م.ن.)، الكتاب٥٣.
(٤٣) (م.ن.)، الكتاب٢٠.
(٤٤) (م.ن.)، الكتاب ٢٦.